ولعل ابن عبد السلام يكون بهذه القاعدة الأخيرة، قد أشار إلى مبدأ حصانة وحرمة السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين وهو مبدأ استقر عليه القانون الدولي المعاصر[1].

هذه بعض الخطوط العريضة فيما يتعلق في جهد الشيخ عز الدين في تطوير قواعد القانون الدولي والعلاقات الدولية.

سابعاً: أعماله في التدريس والإفتاء والقضاء والخطابة:

1 ـ في التدريس: قام العز بن عبد السلام بالتدريس في مدارس دمشق ومساجدها، وهو أول عمل قام به العز رحمه الله وأول مدرسة عمل بها هي المدرسة العزيزية حيث كان للعز مجلس فيها يدرس فيه العلوم الشرعية، كما كان يدرس فيها الآمدي (ت 631هـ) واستمر العز في التدريس مع أستاذه الآمدي وبعده، كما درس في المدرسة الشبلية، ثم تولى التدريس في الزاوية الغزالية وهي مكان صغير، بجانب الجامع الأموي من جهة الغرب وسميت

(1) كتاب الإعلام بقواعد القانون الدولي (13/ 391).

بذلك نسبة إلى الإمام الغزالي (ت 505هـ)، كان يعتكف فيها، ثم استعملت للعبادة والتدريس والأذكار، وتولى العز التدريس فيها بعد وفاة شيخها جمال الدين الدولعي سنة (635هـ)[1]، ومع علمه ونبوغه وذيوع صيته، وبروزه على الأقران، حتى إنه كان مفتياً قبل هذا التاريخ، والتدريس مرحلة متقدمة على الإفتاء، فلا بد أن يكون العز قام بالتدريس قبل تولية الملك الكامل له في سنة (635هـ) وبعد هجرته إلى مصر ولاه السلطان التدريس في الصالحية (بالقاهرة) وكانت مدرسة كبيرة خصصت لتدريس المذاهب الأربعة، فأسند تدريس المذهب الشافعي للإمام العز رحمه الله فبقي إلى أن توفي (660هـ) ولم يكتف بالتدريس فيها، بل عقد حلقات العلم في المساجد وقصده الطلاب من الآفاق، وتخرج عليه في هذه الفترة معظم تلامذته الذين برزوا الأقران كابن دقيق العيد، والدمياطي، وغيرهم ممن سبق ذكرهم، وقد عرض عليه الملك الظاهر بيبرس بعد بنائه المدرسة الظاهرية أن يتولى أمر التدريس فيها إضافة إلى تدريسه في الصالحية، فأبى وقال: إن معي تدريس

(1) طبقات السبكي (8/ 242) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين، ص: 131.

الصالحية، فلا أضيق على غيري، وسأله الملك أن يشترط في وقفها أن يكون التدريس لأولاده فقال: إن في هذا البلد من هو أحق منهم، فقال: لا بد أن يكون لهم فيها وظيفة بالشرط، ففكر وقال: إن كان لا بد فتكون الإمامة، فشرط لهم[1]، وقد عرض عليه الظاهر بيبرس أيضاً أن يعين مناصبه لمن يريد من أولاده فقال: ما فيهم من يصلح، وهذه المدرسة الصالحية تصلح للقاضي تاج الدين ابن بنت الأعز[2]، وكان أحد تلاميذه فضرب مثلاً نادراً في الحرص على الدين والورع، وعدم إيثاره أولاده على مصلحة المسلمين، فأسند الأمر إلى أهله ومن هو أهله، وكان العز رحمه الله مجيداً في تدريسه، جاداً في عطائه، وقد أثنى أبو الحسن الشاذلي على مجلس العز بن عبد السلام فقال: . . . ما على الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام[3].. وكان مهيباً وقوراً، مع حسن محاضرة وبشاشة، لا يهتم بمظهر ولا ملبس، فقد كان يلبس قبع لباد، ويحضر فيه المواكب

(1) طبقات الفقهاء، للأسنوي (2/ 197).
(2) فوات الوفيات (1/ 596).
(3) حسن المحاضرة (1/ 127) فتاوى عز الدين بن عبد السلام، ص: 129.

السلطانية، وأحياناً يلبس العمامة دون تكلف أو تصنع[1]، ويعطي درسه مسترسلاً وهو أول من درس التفسير في حلقاته، كما درّس الفقه والأصول وغيرها من العلوم الشرعية، وفاق أقرانه حتى قال ابن الحاجب أحد أقرانه: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي[2].

2 ـ **الإفتاء:** لقد مارس الإمام العز الإفتاء بدون تعيين من ملك أو سلطان، بل إن هذا المنصب الرفيع لم يكن يخضع لمراسيم الملوك، وإنما هو مهمة يقوم بها العالم إذا رأى نفسه أهلاً لذلك، وقال العز رحمه الله في أيام محنته مع الملك الأشرف: أما الفتيا فإني كنت والله متبرماً منها وأكرهها وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا أني أعتقد أن الله أوجبها عليّ لتعينها عليَّ في هذا الزمان لما كنت تلوثت بها[3]، والآن قد عذرني الحق، وسقط عني الوجوب وتخلصت ذمتي ولله الحمد والمنة.

كان هذا الكلام قاله العز لمن جاء من طرف السلطان يبلغه بعزله عن الإفتاء، وزاد العز فقال لرسول السلطان:

---

(1) طبقات السبكي (8/ 214) فتاوى عز الدين بن عبد السلام، ص: 129.

(2) طبقات السبكي (8/ 214) المصدر نفسه، ص: 129.

(3) طبقات السبكي (8/ 237) المصدر نفسه، ص: 129.

يا غرز، من سعادتي لزومي لبيتي، وتفرغي لعبادة ربي والسعيد من لزم بيته وبكى على خطيئته واشتغل بطاعة الله تعالى وهذا تسليك من الحق، وهدية من الله ـ تعالى ـ إليَّ أجراها على يد السلطان وهو غضبان وأنا بها فرحان، والله يا غرز لو كانت عندي خلعة تصلح لك على هذه الرسالة المتضمنة لهذه البشارة لخلعت عليك، ونحن على الفتوح، خذ هذه السجادة صلِّ عليها، فَقبِلها وقبَّلها، وودعه وانصرف إلى السلطان، وذكر له ما جرى بينه وبينه فقال لمن حضره: قولوا لي ما أفعل به؟ هذا رجل يرى العقوبة نعمة اتركوه، بيننا وبينه الله[1]. . وبقي العز على تلك الحال ثلاثة أيام، ثم إن الشيخ العلامة جمال الدين الحصري شيخ الحنفية في زمانه ذهب إلى الأشرف فقال له: إيش بينك وبين ابن عبد السلام؟ وهذا رجل لو كان في الهند، أو في أقصى الدنيا كان ينبغي للسلطان أن يسعى في حلوله في بلاده لتتم بركته عليه وعلى بلاده ويفتخر به على سائر الملوك. وكان لتدخل الشيخ جمال الدين الحصري أثر في احترام وتقدير الشيخ العز حتى أن السلطان قال: نحن نستغفر الله مما جرى، ونستدرك

(1) العز بن عبد السلام حياته وآثاره ومنهجه، ص: 56.

الفارطة في حقه، والله لأجعلنه أغنى العلماء، وأرسل إلى الشيخ واسترضاه وطلب محاللته ومخاللته[1]، فكان بعد ذلك يأخذ بفتواه ومشورته، وقد طلبه في مرض موته كما ذكرنا وسأله محاللته ونصحه، فنصحه العز بأن يحول عسكره الذين استعدوا لقتال أخيه الملك الكامل حاكم مصر إلى جهة العدو المشترك التتار، وكانوا قد ظهروا في شرق بلاد الإسلام في ذلك الوقت، فأمر الأشرف بذلك، كما نصحه بإبطال المنكرات التي يرتكبها نوابه من الزنا وإدمان الخمور وتمكيس المسلمين، وظلم الناس، فأمر الأشرف بإبطال ذلك، كما باشر العز بنفسه تبطيل بعضها، وبعد هذه النصيحة قال الأشرف: جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه، وأطلق له ألف دينار مصرية فردها عليه، وقال: هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشيء من الدنيا[2]، ثم لم يمض أخوه الصالح إسماعيل تبطيل المنكرات وكان نائبه يومئذ، ثم استقل بالملك بعد موته ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى قدم أخوه الملك الكامل من الديار المصرية بجيوشه إلى دمشق

(1) طبقات السبكي (8/ 218) العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 56.

(2) العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 57، طبقات السبكي (8/ 241).

وحاصر أخاه إسماعيل، ثم اصطلح معه، وأكرم الكامل العز غاية الإكرام، وقد اجتمع مع العز بحضور أخيه إسماعيل، فقال الكامل: إن هذا له غرام برمي البندق، فهل يجوز له ذلك؟ فقال الشيخ: بل يحرم عليه، فإن الرسول ﷺ نهى عنه، وقال: «**إنه يفقأ العين ويكسر العظم**»[1]..

فيلاحظ أن ملوك بني أيوب كانوا يعزون الشيخ ويكرمونه غاية الإكرام ويحبون مجالسته والاستماع إلى نصحه، والعمل بمشورته، بما فيه خير الإسلام والمسلمين، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ولا يهابهم ولا يجاملهم[2].. وقد اشتهر العز بالإفتاء حتى أن الناس كانت ترد عليه من البلاد لتستفتيه، كما أن شهرته بذلك قد وصلت إلى مصر قبل أن يذهب إليها بدليل أنه لما ذهب إليها سنة (639هـ) امتنع مفتيها الحافظ المنذري من الفتيا وقال: كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين عليه[3]، وقد بادله العز نفس الإكرام والتقدير فامتنع عن التحديث لوجود حافظ عصره المنذري،

(1) العز بن عبد السلام، ص: 57، نقلاً عن: طبقات السبكي.
(2) العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 57.
(3) الشيخ العز بن عبد السلام حياته وآثاره، ص: 57.

وكان كل منهما يجلّ الآخر ويحضر دروسه[1].. وكان العز حريصاً كل الحرص في فتاويه يتحرى الدقة فيها، حتى أنه مرّة أفتى بشيء ثم تبين أنه أخطأ فنادى في الأسواق في مصر والقاهرة على نفسه: أنه من أفتاه فلان بكذا فلا يعمل به فإنه خطأ[2]، وهذا يدل على شدة ورعه ومراقبته لله وخشيته منه، وحرصه الشديد أن لا يضل أحد من عباد الله بسببه، ولم يأبه لمن سيوصمه بالجهل وعدم المعرفة، لأنه آثر الآخرة على الدنيا، وثواب الله على مدح الناس، لذلك أكرمه الله سبحانه، وجعل له القبول في قلوب عباده، فقصد بالفتوى من سائر البلاد[3]، وسارت فتاويه مع الركبان وتحدث الناس بها وعملوا بها من الخلفاء والملوك والسلاطين إلى العامة والضعفاء والمساكين، وترك لنا تراثاً في الفتاوى، سميت بعضها بالفتاوى المصرية والأخرى بالفتاوى الموصلية، وقد قال عنه ابن كثير: انتهت إليه رئاسة المذهب، وقصد بالفتوى سائر الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب، بل اتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده[4].

(1) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ص: 129.
(2) فتاوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ص: 133.
(3) المصدر نفسه، ص: 123 ، 130.
(4) البداية والنهاية (17/ 442).

3 ـ القضاء: ذكر ابن السبكي عن رسالة ولد العز الشيخ عبد اللطيف في أخبار والده، أن الملك الكامل لما حاصر دمشق واستولى عليها من أخيه الملك الصالح إسماعيل ولى والده الشيخ تدريس زاوية الغزالي بجامع دمشق، وذكَّر بها الناس، ثم ولاه قضاء دمشق بعدما اشترط عليه الشيخ شروطاً كثيرة ودخل في شروطه، ثم عينه للرسالة إلى الخلافة المعظمة، ثم اختلسته المنية ﷺ في 22 رجب سنة (635هـ)، فكانت مدة ملكه دمشق شهرين ونصف تقريباً[1]، وذكر الداودي: أن الكامل وَلَّى الشيخ تدريس الزاوية الغزالية بجامع بني أمية وعزم على ولايته قضاء دمشق، وإرساله في الرسالة إلى بغداد، فمات دون إمضاء ذلك بدمشق[2]، فعبارة الداودي تفيد أن الشيخ لم يتول منصب القضاء، ولم يقم بالرسالة، لأن الكامل مات قبل تنفيذ ذلك الأمر، بينما عبارة ولده تخالف ذلك حيث أفادت أنه تولى القضاء، وليست قاطعة بذلك، فهي محتملة أنه عينه، ولم يباشر حيث مات الكامل بعد شهرين ونصف وجاء بعده أخوه الملك إسماعيل فلم ينفذ ذلك وهذا

(1) ذيل الروضتين، لأبي شامة، ص: 166، الشيخ العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 58.

(2) العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 58.

الاحتمال هو الراجح ويقويه نص عبارة الداودي، ولو أن الدكتور رضوان اطّلع على هذا النص لما قال: ولعل عز الدين بقي في منصب قضاء دمشق برهة من الزمن خلال هذه الفترة القصيرة من حكم الكامل لدمشق، إذ جاء بعده أخوه الصالح إسماعيل، ولم يكن يعجب بالشيخ، ولا يرضى أن يبقيه في القضاء، وقد حرم عليه اللعب بالبندق ولعل قصر فترة بقائه بهذا المنصب جعل أصحاب التراجم، وابن طولون لا يذكرونه بين قضاة دمشق[1]، ولما هاجر إلى مصر أسند إليه الملك نجم الدين أيوب الخطابة والقضاء حيث توفي قاضي قضاة مصر شرف الدين بن عين الدولة سنة (639هـ)، فولى السلطان العز القضاء مكانه وحدد له قضاء مصر والصعيد، وأبقى قضاء القاهرة والوجه البحري مع قاضي غيره، كما فوّض إليه مع القضاء الإشراف على عمارة المساجد المهجورة في مصر والقاهرة، وسار بالعدل والإنصاف ورفع الجور والحيف مهما كلفه الثمن[2].

4 ـ **الخطابة:** لما تولى الشيخ عز الدين الخطابة بدمشق أزال كثيراً من البدع التي كان يفعلها الخطباء من دق السيف

(1) العز بن عبد السلام، للوهيبي، ص: 58.

(2) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 127.

على المنبر، ولبس السواد، والسجع المتكلف، والثناء على الملوك بما ليس فيهم، بل كان يدعو لهم، وأبطل صلاتي الرغائب والنصف من شعبان، وقد وقع بينه وبين ابن الصلاح (ت 643هـ) خلاف ووحشة بسبب صلاة الرغائب لأنه كان يؤيدها، واستمر العز في خطبه بالجامع الأموي سنة ونيفاً حتى عزله الصالح إسماعيل بسبب إنكاره عليه تحالفه مع الصليبيين سنة (638هـ)[1]. ولما هاجر إلى مصر استقبله صاحبها نجم الدين أيوب أعظم استقبال، وقربه وأدناه وأكرمه وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص، وقد قام بمهمته أعظم قيام، وأدى رسالة المسجد التي عاش من أجلها على أحسن وجه، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صادعاً بالحق، منكراً للباطل، وكان حريصاً أن لا يعزل نفسه عن الخطابة، كما فعل في عزل نفسه عن القضاء، لأنه لا يخشى الحيف وظلم الناس في الخطابة خلافاً للقضاء، وكان الملك نجم الدين يخشى من سلاطة لسانه وجرأته لذلك سارع إلى عزله عن الخطابة، عندما عزل نفسه عن القضاء بعد حادثة إسقاط عدالة وزيره معين الدين ابن شيخ الشيوخ[2]، وتولى

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 125.

(2) المصدر نفسه، ص: 127.

الخطابة بعده المجد الأحميمي[1]، كما سيأتي معنا بإذن الله تعالى.

ثامناً: أهم صفات العز بن عبد السلام:

تميزت شخصية الشيخ عز الدين بن عبد السلام بمجموعة من الصفات من أهمها:

1 ـ **الشجاعة:** من الصفات التي لازمت العز بن عبد السلام طيلة حياته: الشجاعة في الحق، ذلك لأنه كان مع الحق يدور حيث دار، وما قصته مع نائب السلطان عندما عزم على بيع المماليك إلا دليل ساطع على شجاعته وجرأته وأنه لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يخشى سلطاناً، ولا يهاب الموت في سبيل الله، وقد ذكر ابن السبكي: أن جماعة من المفسدين قصدوه في ليلة معتمة وهو في بيت عالم في بستان متطرف عن البساتين وأحاطوا بالبيت، فخاف أهله خوفاً شديداً، فعند ذلك نزل إليهم، وفتح باب البيت، وقال: أهلاً بضيوفنا، وأجلسهم في مقعد حسن، وأخرج لهم ضيافة حسنة فتناولوها وطلبوا منه الدعاء، إذ كان مهيباً له موقع حسن في القلوب فهابوه،

(1) فتاوى شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ص: 127.